المُصطلحُ الحِجاجيُّ بين الحدّ والتّوليد

The Argumentative Term Between Definition And Generation

أ. د. عليّ الشّبعان

أستاذ تحليل الخطاب ومناهج النّقد الحديث ونظريّات التّرجمة

جامعة الوصل، دبي، الإمارات العربيّة المتّحدة

Prof. Ali Achabaane

Professor of Discourse Analysis, Modern Criticism Methods, and Translation Theories

Al Wasl University, Dubai, United Arab Emirates

https://doi.org/10.47798/fom.2025.i05.08

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

يتناول هذا البحثُ إشكاليّة المصطلح الحِجاجيّ من منظور ديناميكيّ يبرز طبيعته المتحوّلة داخل الحقول التداوليّة، متجاوزًا المقاربات التعريفيّة الجامدة.

وينطلق من فرضيّة مُفادها أنّ المصطلحات تخضع لسيرورة مستمرّة من التّوليد والتوسّع الدلاليّ بفعل الاِستعمال والسّياق.

وقد بيّن البحثُ أنّ المصطلح الحِجاجيّ، إنّما يتعرّض إلى تحويلات دلاليّة ثلاثة: الضمور، والتضخّم، والاِنحراف، بما يعكس تفاعله مع الأنساق المعرفيّة والإيديولوجيّة.

وقد اِتّخذ البحثُ من متصوّر «بنينة الواقع» أنموذجًا تطبيقيًّا، مبرزًا محدوديّة تعريفه في سياق الحِجاج التّحاوريّ، حيث يُختزل في تحويل الواقع الذّهنيّ للمتحاورين وتوجيه قناعاتهم.

وفي مقابل ذلك، يقترح توسيع هذا المتصوّر عبر آليّة التتميم المعرفيّ، بما يسمح بتوليد دلالات جديدة، تتجاوز البعد اللّغوي إلى مستويات رمزيّة وتأويليّة وأنطولوجيّة، تُسهم في إعادة تشكيل الواقع ونظمنة المعنى.

ويخلص البحث إلى أنّ التوسّع الدلاليّ، إنّما يُعدّ قانونًا مركزيًا في إنتاج المعرفة، وأنّ المصطلح ليس أداةً تقنيّة محايدة، بل بنية حيّة تعكس صراع التّأويلات وتوجّهها، وترتبط عضويّاً بالوضع الإنسانيّ وسعيه إلى بناء العالم وفهمه.

الكلمات المفاتيح: المتصوّر، التوسّع الدلاليّ، الحجاج، المجال التّداوليّ، التّوليد المصطلحيّ.

Abstract

This study examines the argumentative term from a dynamic perspective that highlights its evolving nature within pragmatic fields, moving beyond rigid definitional approaches. It is grounded in the assumption that terms undergo continuous processes of generation and semantic expansion under the influence of usage and context. The study demonstrates that the argumentative term is subject to three types of semantic transformation: reduction, expansion, and deviation, reflecting its interaction with cognitive and ideological systems.

The concept of “structuring of reality” is adopted as a case study, revealing the limitations of its definition within dialogical argumentation, where it is confined to transforming the interlocutors’ mental reality and guiding their convictions. In response, the study proposes an expansion of this construct through a process of epistemic completion, enabling the generation of new meanings that extend beyond the linguistic dimension to symbolic, interpretive, and ontological levels, thereby contributing to the reconfiguration of reality and meaning.

The study concludes that semantic expansion constitutes a central principle in knowledge production, and that the term is not a neutral technical tool but a living structure reflecting competing interpretations and orientations, intrinsically linked to the human condition and its endeavor to construct and comprehend the world.

Keywords: Construct, Semantic Expansion, Argumentation, Pragmatic Field, Terminological Generation.

توطئةٌ:

يطرح المصطلحُ الحِجاجيُّ لدى من أغوتهم العنايةُ به من الفلاسفة والمنظّرين عربٍ وأعاجمَ، قديما وحديثا[1]، إشكالاتٍ كثيرةً تختلف باختلاف الأفق النّظريّ الّذي ينوي الباحثُ بلوغ مآلاته، أو يقدّر الدّارسُ إدراك مراميه.

ولعلّ من بين هذه الإشكالات الكثيرة المتعلّقة بالمصطلح الحِجاجيّ في المصنّفات النّظريّة المعاصرة، قضيّةُ التّوسّع الدّلاليّ[2] الّذي يطرأ على المتصوّرات الحِجاجيّة، فيرحل بمعانيها إلى أقاليمَ جديدة مشتقّة، تثري أصل المتصوَّر وتعمّق نواته البدئيّة، إذ تفتحه على إمكانات معنويّة تترسّب وتتراكم فيمكّنها التّداولُ فتصير مصطلحاتٍ قارّةً واستعمالاتٍ موثّقةً يعرف مقاصدَها أهلُ الاختصاص يدقّقون محتوياتها، ويضبطون فروقاتِها حتّى لا تلتبس بغيرها من الأشباه والمترادفات ولا تضيعَ خواصُّها في المشترك العامّ، أعني ما تعاهد عليه العقلُ البشريُّ - وهو يولّد معانيه ويقيم جسور تواصله- من ألفة التّبالغ بالشّبيه، يقرّب الفكرةُ فيشيعها، ويناظر المعنى فيجريه.

وسنعتني لبيان حقيقة ظاهرة التوسّع الدّلاليّ الواقعة على المتصوّرات الحِجاجيّة، بمتصوّر "بَنْيَنة الواقع»[3] وما يتّصل به من محمولات تُردّ إلى نواته المتصوّريّة وما ترشح به تلك النّواة بعد أن يطرأ عليها التّوليدُ والتّوسيع من مشتقّات دلاليّة تراكمها الخبرةُ ويكثّرها الاستعمالُ، فتلبس رداء المصطلح بعد أن تستقرّ في المجال التّداوليّ الّذي يمنحها قرارا مؤقّتا يتحوّل بتغيّر حاجة النّاس إلى ما يفي بضرورات اجتماعهم، وما يحقّق تواصلهم المعرفيّ، فتتغيّر بذلك دلالةُ المصطلح وتصير تحت وقع الحاجة، متصوّرا يجري عليه ما جرى على سلفه الأوّل من تبديل وتحويل ينتهي بعد أن يقوم الاستعمال بشرعنته

1- لمزيد التّعمّق في تاريخ النّظريّة الحِجاجيّة من النّشأة إلى راهن أيّامنا، راجع المؤلَّفين التّاليين:
أهمّ نظريّات الحِجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحِجاج، إشراف: (صمّود) حمّادي. منّوبة، تونس، ط/1، 1999.

(*) Histoire de la rhétorique dés Grecs à nos jours, sous la direction de Meyer (Michel), Librairie générale Française, 1999.

2- عن قضيّة التوسّع الدّلاليّ وعلاقتها بحركيّة المصطلح، راجع، - تمثيلا لا حصرا-، إبراهيم (عبد اللّه). الثّقافة العربيّة والمرجعيّات المستعارة، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1/، 2010، وخاصّة، الباب الثّاني: (المفاهيم والأنساق الثّقافيّة، هيمنة المحمول الغربيّ) ومن هذا الباب يُراجع، الفصل الأوّل: (المصطلح والانزياحات الدّلاليّة)، ص ص، 152-129.
وكذلك، (الزّيديّ) توفيق. جدليّة المصطلح والنّظريّة النّقديّة، قرطاج 2000، تونس، ط/1، 1998.

3- لقد أخذنا، هذا المصطلحَ من كتاب، (فليب برتون): Breton (Philippe)، الحِجاج في المحاورة:
- L'argumentation dans la communication, Éditions la Découverte, Paris, 2003.

والفاعلون اللّغويّون بإثباته، مصطلحًا يَقرّ قرارُه حينا من الزّمن، ثم يشرع من جديد في الرّحلة والظّعن، التّرحال والسّفر.

إنّها حياة المصطلحات شبيهةٌ في حياتها بحياة منشئها أعني: الإنسان لا يقرّ له قرارٌ ولا تهدأ له حركةٌ يسابق الجديدَ الحادثَ ويلهث وراء المستحيل الممتنع، حتّى يصنع معنى لوجوده ويقيم برهانا على إرادته.

فكيف ضبط أهلُ التّنظير متصّوّر «بنينة الواقع»[1] من جهة حدّه ومن منطلق تعريفه؟

كيف حدثت عمليّة التّوسّع الدّلاليّ الّتي جرت على المتصوّر وما هي أهمّ قوانينها؟

كيف تحدث النّقلةُ من المتصوّرات إلى المفاهيم ومن المفاهيم إلى المصطلحات، وما علاقة ذلك بأنظمة إنتاج المعنى: ذهنيّا وحسيّا؟

إلى أيّ مدى تُعتبر عمليّة التّوسيع الدّلاليّ الجارية على المتصوّرات والمفاهيم والمصطلحات: قانونا مركزيّا في توليد المعارف وتشقيق العلوم؟

كيف تبدو العلاقةُ بين ظاهرة التّوليد الدّلاليّ والتّشقيق المصطلحيّ وبين منزلة الإنسان في الوجود، أهي علاقةُ ارتباط أنطولوجيّ ينخزل إليها سؤالُ الوجود، أَم هي علاقةُ اقتضاء لغويّ تنتهي بانتهاء الحاجة إلى التّبالغ وتنقضي بانقضاء الدّافع إلى التّواصل؟

كيف يمكن تحويل المبحث المصطلحيّ، من مبحث تقنيّ إلى سؤال وجوديّ، يتأسّس على دعوى نظريّة حاصلُ أمرها، أنّ الأبنية اللّغويّة البسيطة، تتضمّن أسئلةً فلسفيّةً عميقةً وحيراتٍ أنطولوجيّةً غائرةً، يحتاج كشفُها والظّفر بأسرارها، تأويلا وهتكا عنيفين تصير بمقتضاهما المصطلحاتُ، خياراتٍ بشريّةً وإمكاناتٍ تصوّريّةً تُترجم عقائد عالِم المصطلح يرشّح معنًى ويبطل آخرَ، حسب اقتضاء المصلحة، أو وقوعا تحت طائلة فعل رمزيّ: (دينيّ/سياسيّ، ثقافيّ / حضاريّ، نفسيّ/ سيكوكوجيّ...) يوجّه مسارات التّوليد ويحدّد حركة الإنشاء؟

1- Structuration du réel

1- في قضايا المصطلح الحِجاجيّ:

من البداهة القولُ إنّ للمصطلح الحِجاجيّ شأنُه شأنُ كلّ مصطلح، دورا أساسيّا في تكوين المعرفة وإرساء قواعد العِلم، إذ لا علم دون مصطلح ولا معرفة دون مفهوم فتلك أشراطٌ تقضي بها نظريّة المعرفة، حتّى نقول: إنّ هذا العلمَ علمٌ وإنّ تلك المعرفةَ معرفةٌ[1].

و من هذا المنطلق النّظريّ العامّ الّذي يُنمي إلى المصطلح دورا أساسيّا في تكوين المعرفة وإرساء قواعد العلم، فإنّ ما يطرأ على المصطلحات عامّة، يطرأ على المصطلح الحِجاجيّ من جهة اِنطباعه بجوامعَ مشتركة توحّد بين المصطلحات في الانتماء إلى السّلالة المصطلحيّة وهي سلالةٌ نوعيّة تتقارب في المشتركات، وتتباين في الميزات الفرديّة والخصائص الذّاتيّة الّتي تكتسبها المصطلحاتُ من المجالات التّداوليّة الّتي تحضنها والبيئات العلميّة الّتي تحيط بها أو تنشأ في دائرة جذبها فتحصل للمصطلحات - من جرّاء انفعالها بقواعد المجال التّداوليّ-، ثلاثةُ أضربٍ من أنواع التّحويل[2]:

- الضّمور الـدّلاليّ
- التضخّم الـدّلاليّ
- الاِنحراف الدّلاليّ

و هذه الأضرب الثّلاثة من أضرب التّحويل المنجرّة عمّا يحدثه المجالُ التّداوليّ في المصطلحات من آثار، تدلّ دلالة ظاهرة على أنّ للمصطلحات حياةً نامية ووضعًا وجوديّا متحوّلا يجعلها كِياناتٍ شبيهةً بما يحصل للإنسان - في رحلة بحثه عن معنى لوجوده- من التقلّب والاِضطراب ومن المحن والنّوازل تغيّر مساره وتبدّل وجهة طلبه، فيبطل ما اِستقرّ ويرشّح ما كان أقصاه الفاعلان الأكبران أعني: التّاريخ والشّرعنة الاستعماليّة من مدلولات لمتصوّرات ومعان لمصطلحات استقرّت داخل أنظمة المؤسّسة اللّغويّة، فثبتت مداليلها وتوهّم مستعملوها أنّها أوضاعٌ خالدة لا يعتور عليها تبديلٌ ولا يدركها تحويلٌ، لأنّها اشتهرت بينهم فصارت مألوفةَ المعنى بيّنةَ الدّلالة.

ولكنّ عَصْف التّاريخ وتبدّل الأحوال، ينتج عنهما انفعالُ المصطلحات بما هي كياناتٌ حيّةٌ - انفعالا مباشرا تكون ضروب التّحويل الثّلاثة الّتي سبَق ذكرها، هيئاتٍ ممكنةً

1- إبراهيم (عبد آللّه). الثّقافة العربيّة والمرجعيّات المستعارة، (المرجع السّابق).
2- المرجع نفسه.

يمكن أن تَشتقّ منها الأوضاعُ والنّوازلُ، ما لا نهاية له من وجوه التّبديل والتّحويل الّتي قد تطرأ على المصطلح فتغيّر متعلّقاتِه المتصوّريّةَ، وتبدّل محموله الدّلاليّ، فينزل في مقام استعماليّ ليس المقام ذاته الّذي ألفه وتعوّد عليه.

وحتّى لا تطول بنا الإستطرادات النّظريّة في شأن طبيعة المصطلح عامّة وخصائصه وأشراط تداوله خاصّة، فإنّنا سننقل كلامنا إلى دائرة المصطلح الحِجاجيّ الّذي اتّصف بالتّبدّل وانطبع بالتحوّل، مذ نشأ في البيئتين الأثيلتين أعني: البيئة اليونانيّة والبيئة الرّومانيّة، وصولا إلى بيئات المحدَثين من العجم والعرب[1]، حيث بدا لنا من تَرحال المصطلح يشقّ التّاريخَ ويخترق الأزمنةَ، أنّه اتّخذ في جملته ثلاثة مفاهيمَ أساسيّة:

- الحِجاج: قاسما مشتركا بين علمي الجدل والخطابة: (أفلاطون/ أرسطو/ السّفسطائيّون).
- الحِجاج: مستقلاّ عن صناعة الجدل والخطابة وموصولا بالأنظمة البرهانيّة والتّناظرات العقليّة والمعادلات المنطقيّة: (النّظريّات المنطقيّة الشّكليّة، فينيو/ أبوستال...).
- الحِجاج: مبحثا لغويّا قائما برأسه تصله بنظريّة الأعمال اللّغويّة والتّأثيرات المقاصديّة والتّوظيفات الإيديولوجيّة، روابطُ جمّةٌ تجعله بنية مركّبة تنفعل بالأسيقة التّداوليّة الحاضنة: ((السّياق الاجتماعيّ)، (السّياق الفكريّ)، (السّياق السّياسيّ)، (السّياق الدّينيّ/ العقائديّ)، (السّياق النّفسيّ)، (السّياق اللّغويّ...)): (بيرلمان ومدرسته/ مريانا توتسكو / روت آموسي/ برتون /غوتيي...).

إنّ هذه المفاهيم الثّلاثة[2] الّتي رُكّب عليها المصطلح الحِجاجيّ، دليلٌ آخرُ على

1- عن انطباع النّظريّات الحِجاجيّة بالتبدّل والتّحوّل، مذ نشأت إلى أيّامنا، راجع على سبيل المثال المؤلّفات التّالية:

(*) Histoire de la rhétorique Dés Grecs à nos jours, Op.cit.

(*) أهمّ نظريّات الحِجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، (مؤلّف جماعيّ)، أنشأه فريق البحث في البلاغة والحِجاج الّذي يشرف عليه الأستاذ صمّود (حمّادي). منشورات كليّة الآداب، منّوبة، تونس، ط/1، 1999.

(*) الشّبعان (عليّ). الحِجاج والحقيقة وآفاق التّأويل في نماذجَ ممثّلة من تفسير سورة البقرة: (بحث في الأشكال والإستراتيجيّات)، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، لبنان، ط/1، 2010.

(*) الشّبعان(عليّ).بحوثٌ في البلاغة الجديدة: (القضايا والتّحوّلات)، من تقنيّات الجدل إلى إيطيقا الاختلاف، سلسلة دروب، مكتبة المتنبّي، الدمّام، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط/1، 2012.

2- صولة (عبد اللّه) الحِجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، منشورات كليّة الآداب، منّوبة، ط/2، 2009.

حيويّته الدّائمة وانطلاقه المستمرّ، إذ في كلّ مفهوم تصوّرٌ وداخل كلّ تصوّر موقفٌ من العالم والأشياء وفي الموقف من العالم والأشياء، أنماطُ إقامة أنطولوجيّة وتصوّراتٌ فكريّة لا تُختزل في الاستعمالات المصطلحيّة الّتي يجريها صاحبُ العِلم، بل تتجاوز تلك الاستعمالات إلى ما يلفّها من خفايا ترشيح أبنية دلاليّة وإبطال أبنية أخرى لا تتوافق مع نُظم الاعتقاد الّتي تواضعت عليها الجماعاتُ الفاعلة في مجتمع من المجتمعات تواطأت، - وهي ترشّح الأبنية المعنويّة أو تبطلها- على وجه من وجوه النّجاعة واتفقت على شكل من أشكال التّمكين.

2- في متصوَّر «بَنْيَنة الواقع»/ La structuration du réel بين الحدّ والتّوليد:

لقد استعمل «فليب برتون» (Philippe Breton) في كتابه: «الحِجاج في المحاورة»[1] متصوّر «بنينة الواقع» باعتباره نعتا لوظيفة من وظائف العمل الحِجاجيّ المتجلّي في المحاورات والبادي في المناقشات والظّاهر في المداولات، تحدث بين طرفين أو أكثر.

ولكنّ هذا المتصوّر لم يكن في كتاب: «برتون» متصوّرا مركزيّا، بل كان واحدا من جملة متصوّرات، عيّن من خلالها المؤلّفُ مختلِف الوظائف الّتي يمكن أن تَنتج عن فعل المحاججة في مقامات المحاورة.

فوَضْع المتصوّر في محيط المؤلِّف النّظريّ، إنّما كان وضع الفضلة، لا وضع النّواة نظرا إلى أنّه متصوّرٌ، يحتاج غيرَه ويطلب سواه، إذا ما تعلّق الأمرُ بالحديث عن وظائف الحِجاج وأدواره في سياق نظريّة: «برتون» الحِجاجيّة/ التّحاوريّة.

فكيف حدّ «برتون»/ (Breton) هذا المتصوّر وعرّفه؟

وهل يمكن أن نقتصر على هذا الحدّ ونكتفي بهذا التّعريف، أم إنّ وظيفة التّتميم المعرفيّ تقتضي نشر مساحة المتصوّر واِشتقاق متصوّرات أخرى توسّع مداه وتضاعف أدواره في الظّفر بحقائق الحدث الحِجاجيّ إذا ما رمنا مقاربته خارج الدّائرة اللّغويّة التّحاوريّة ونزّلناه ضمن الدّوائر الرّمزيّة والأنطولوجيّة والإيديولوجيّة؟

هل تبدو حياةُ المصطلح في انحسار معناه داخل الحدود والتّعريفات، أم في ما يحدث له من ضروب التّوليد وأنماط التّشقيق الّتي تمارسها قوّةُ المجال التّداوليّ على المتصوّرات،

1- Breton (Philippe), Op.cit

يتكثّر معناها وتتعدّد مقتضياتها فتفارق دلالة الأصل المقدود بالتّواضع والمصنوع بالتّوافق بين أفراد الجماعة العالمة/ المتكلّمة إلى مجال استعماليّ أرحب يَشحن الدّلالة الأصليّة بمعان مشتقّة، تعمل على نحت مصطلحات أخرى تكون نواةً لتأسيس عِلم جديد أو تلويحا بنشأة معرفة محدثة؟

2-1. بنْيَنَة الواقع: المفهوم والحدّ.

إنّ النّاظر في المواضع الّتي نزّل فيها «برتون» متصوّر «بنينة الواقع» في كتابه «الحِجاج في المحاورة» سيظفر بنتيجة حاصلُ أمرها أنّ هذا المتصوّر كما يجريه صاحبه لا يتجاوز معنيين اثنين:

معنى التّحويل والتّبديل الجاري على الواقع الذّهنيّ للمتحاورين.

معنى هيكلة الفهوم وتوجيه القناعات والخيارات الّتي ترشح عن بنى التّبادل الحواريّ في مقام تلفظيّ يهدف إلى إثبات اليقينيّات الحِجاجيّة عبر القنوات الإقناعيّة المتجليّة في بنى اللّغة المستخدمة في حدث المقانعة والموظّفة في مقام المحاججة.

فالمقصود بالواقع في هذا المقام النّظريّ، إنّما هو الواقع الذّهنيّ الّذي يُضمر تغييرَه المحاجُّ من خلال وسائطَ إقناعيّة تسلّط أفعالها على المستهدَفين بعمل الحِجاج يقادون إلى تغيير واقعهم الذّهنيّ والانخراط في واقع ذهنيّ آخر اِقتنعوا بجدواه وتيقّنوا من نجاعته أو حُملوا حمل المجبرين ودُفعوا دفع المكرهين على الانخراط فيه قسرا وتبنّي مقولاته قهرا، فاغتصب إذعانُهم، واُفتكّت قناعاتُهم، ومورس على عقولهم وعواطفهم ما يسمّيه «بيرلمان»، بـ» حجاج القوّة» وهو حِجاج يستمدّ نجاعته البرهانيّة من قوّة مقولاته الرّمزيّة أو من قوّة من نُسبت إليهم المقولاتُ أو الأعمال من الأعلام والرّجال، يتخلّون عن بشريّتهم بمفعول البنينة الذّهنيّة والوسم الإيديولوجيّ لصالح واقع مؤسطَر يصير بمقتضاه أولئك الرّجال/ الأعلام، أو تغدو بحسبه تلك المقولات/ الحِكم، كياناتٍ ما فوق طبيعيّة، تتّصف بشخونة رمزيّة عالية اكتسبتها من تَرحالها الطّويل عبر الأمكنة والأزمنة، فصارت علامات/ رموزا لا يداخلها الشكُّ على الكمال المطلق، وأماراتٍ لا يخالطها التردّد على البرهان القويم.

إنّ اِقتصار «برتون» - وهو يضع لمتصوّر «بنينة الواقع»- مفهومه والحدّ على المعنيين السّابقين، ليس نتيجة قصور نظريّ، وإنّما كان ذلك اقتضاء منهاجيّا يتوافق فيه حدُّ المتصوّر مع مباشرة الحِجاج موضوعَ بحث في سياق نظريّة المحاورة الّتي ألزمت

«برتون» بأن يجعل حديثَه عن الوظائف الحِجاجيّة، تبعا لما يقتضيه عملُ المحاورة الّذي يعوّل في إنشاء القيم الحِجاجيّة على تنمية البُنى الحواريّة، وجعلها تتقدّم في نظام تصاعديّ يراكم الحجج ويضاعف البراهين لإحداث فعل الاقتناع الّذي هو في المحصِّلة، فعل ناجمٌ عن عمل المحاورة الّتي جعلها «برتون» عملا لغويّا خالصا وحدثا لسانيّا محضا عُزل عن مجاله التّداوليّ الموسّع: (الفكريّ/ السّياسيّ، الإيديولوجيّ، الدّينيّ/ العقديّ...)، لذلك ضاقت المعاني وانحسرت الدّلالات في حيّزات، قيّدها الاختيار المنهاجيّ، فلم تستطع الانعتاق من إلزامات ما اختارت، فبقيت مغلولة الحركة تحاول الوثوب فلا تستطيع، لذلك جاءت الحاجةُ إلى توسيع دلالة المتصوّر، اقتضاء معرفيّا ملحّا، وضرورة إبستيمولوجيّة مُحوجة، تُخرج الباحثَ في حقل النّظريّة الحِجاجيّة وفي غيرها من الحقول المعرفيّة الأخرى من وهم الوفاء بإلزامات النّظريّة والانصياع لأشراط المنهج الّتي هي في تصوّر مَن بنى أفكاره ضدّ المناهج[1] غوايةٌ يوهم ظاهر الالتزام بها بعكس ما تمور به بواطنها المضمرة وأعماقها المتخفّية الّتي لا تظهر حقائقها، إلاّ إذا وقف الباحثُ اختباريّا على حدّها وكاشف مداها[2].

فإن كانت هذه حال الحدود والتّعريفات، فما هي حال الاشتقاقات والتّوسيعات الّتي يمكن أن نمارسها على متصوّر «بنينة الواقع»، حتّى يصير مفهوما أوسعَ ومصطلحا أرحبَ، يوسّع وظائف الحدث الحِجاجيّ ويكثّر أدوار العمل البرهانيّ؟

2-2 بنينة الواقع: التّوسيع والتّوليد/ اقتضاءات التّتميم المعرفيّ.

تدفع اقتضاءات التّتميم المعرفيّ، الباحثَ إلى توسيع حدود المتصوّرات وَفق ضوابطَ لغويّة وإجرائيّة وتداوليّة توافقت عليها الجماعاتُ العلميّةُ، فصارت ضربا من النّاموس العامّ الّذي يوحّد صانعي المصطلحات، أكانوا أفرادا، أَم جماعات، أَم مؤسّسات حول نواة استعماليّة مشتركة تقي المصطلح مخاطرَ الذّوبان في غيره وتجنّبه مغبّة الوقوع في دائرة الانسياب الاِصطلاحيّ الّذي يُفقد المتصوّرات أصولَها ويبعدها عن معانيها الّتي كانت لها في البدء قبل أن يعقلنها الاِستعمال ويضبطها الاصطلاح.

1- عن قواعد التّفكير ضدّ المنهج، بوصفه شكلا من أشكال التّمركز حول وهم الموضوعيّة، وهيئة من هيئات التّحيّز النّظريّ والاصطفاف الإيديولوجيّ حول فكرة أو عقيدة أو رأي، راجع- على سبيل المثال-:

- Feyerabend (P), Contre la méthode, Seuil , 1975.

2- Compagnon (Antoine), Le démon de la théorie, littérature et sens commun, Op.cit.

ولمّا كانت غايةُ التّتميم المعرفيّ على الوجه الّذي قدّمنا والهيئة الّتي عرضنا، فإنّ متصوّر «بنينة الواقع»، كما أجراه «برتون» في مؤلَّفه (الحِجاج في المحاورة)، لا يفي بما نرمي إليه من جعل هذا المتصوّر، أكثر قابليّة لاحتواء معان جديدة توسّع مداه وتعلّق به ظلال دلالات تُشتقّ من نواته الأصليّة فتثري أبعادها، وتمضي بها إلى أقصى ما يصل إليه حدّ التّوسيع فتنزلها داخل دوائر إحاليّة جديدة، لم يكن قادرا على حملها الأصلُ، لأنّ المجال التّداوليّ الّذي يحيط بها لم يكن يسمح بوجود تلك المشتقّات المتصوريّة الّتي قد نكون نحن قادرين على تشقيقها ونحت فضاءاتها وفق ما تقضي به ضروراتُ المراكمة المعرفيّة تحدثها الأجيال وترسي قواعدها النّخبُ العالمة تنوي التّطوير وتمنّي النّفسَ بالإحداث والابتداع، حتّى يكون لوجودها معنى ولذواتها وظيفةٌ تظهرها الآثار الباقيةُ وتشهد عليها المحدثاتُ المبدَعةُ، رموزا مجرّدة أم مظاهر محسوسة.

وقد آل بنا منطق التّتميم المعرفيّ نجريه على متصوّر «بنينة الواقع» إلى جعل هذا المتصوّر متضمّنا، رشحا دلاليّا جديدا يمكن اختزاله في الإمكانات التّحويليّة التّالية: بنينة الواقع الذّهنيّ/ بنينة الواقع المادّي/ بنينة الفهوم وشرعنة المعقوليّات/ بنينة المسارات التّأويليّة/ بناء العوالم الممكنة/ الإيهام بالفضائل والكليّات/إثبات التحيّزات الإيديولوجيّة والمركزيّات العقديّة/ التّوجيه والتّطويع/ إقامة الأسيجة وإحداث الموانع/ إقامة الشّوكة واِحتكار الفضاء الرّمزيّ...

إنّ هذه التّحويلات وغيرَها[1] ممّا يمكن اشتقاقه من متصوّر «بنينة الواقع»، لدليلٌ على أنّ آليّة التّوسيع الدّلاليّ الّتي يمكن أن تُجرى على المتصوّرات قبل أن تنتظم مصطلحاتٍ تنضبط لأشراط العلم الّذي تنتمي إليه، إنّما تترجم ما يتّصف به المتصوّر من ليونة فائقة تجعله قادرا على ضمّ متعلّقات دلاليّة كثيرة، تضاف إلى المتعلّق الأوّل فتثري معناه وتغني محتواه فيتحوّل من متصوّر محدّد المعنى ضيّق المجال إلى متصوّر مفتوح يقبل ما يمور به الواقع المصطلحيّ من تدفّق غزير لضروب من المعرفة مختلفة، ولأنماط منهاجيّة متباينة تقضي ضرورة بحتميّة توسيع الحقول المتصوّريّة الّتي يُقدّ منها سدى علم من العلوم أو تُصنع من نسيجها معرفةٌ من المعارف تغيّر وظائفَها الاستعمالاتُ، وتبدّل أنماطها قواضي التّجريب الّتي تتحوّل بمقتضاها المقرّرات النّظريّة الّتي كانت قبلُ

1- عن هذه التّحويلات وغيرها ممّا يمكن إجراؤه على متصوّر بنينة الواقع ومتصوّرات حِجاجيّة أخرى، راجع، عليّ الشّبعان، الحِجاج والحقيقة وآفاق التّأويل، (المرجع نفسه).

حقائقَ قاطعةً ويقينيّاتٍ مطلقةً إلى مأثورات يستعيدها مؤرّخو العلوم - وهم يضبطون للعلوم حِقبا ويرسمون للعارف أسيجة وحواضن-، تشير إلى مراحلها وما اختصّت به تلك المراحلُ من خصائص تكون شاهدا على راهنيّة المعرفة، وبرهانا على نسبيّة العلم.

وقد أفدنا هذا التّوسيع الدّلاليّ الّذي أجريناه على متصوّر «بنينة الواقع»، كما أدّاه «برتون» في سياق «نظريّة الحجاج في المحاورة» من فتح المبحث في الحِجاج على تداوليّة الخطاب وتأويليّة الأنساق الثّقافيّة، وذلك استنادا إلى مدوّنة المفسّرين/ المؤوّلين العرب المسلمين الّتي كانت لنا مادّة بحث طال مداه واِتّسع مجاله في مقام غير هذا، عالجنا فيه نظام الحجّة في الثّقافة الإسلاميّة تلوّنها العقائد، وتوجّهها الإيديولوجيّات، فتتّخذ وجوها كثيرة وتلبس أردية جمّة وفيرة، تحجب حقيقة أمرها وتطمس جوهر فعلها[1].

فبدلاً من أن يَصنع الحدثُ الحِجاجيّ أنساقا تأويليّة تكرّس الاختلاف والمباينة، ترشح عنه أنساقٌ تترجم المطابقة والمماثلة وذلك اقتضاء لما تُلزم به المذاهبُ معتنقيها من الوفاء المطلق والولاء الأتمّ لمقولاتها وثوابتها الّتي صارت بمفعول الشّرعنة والتّمكين المذهبيّ/ السّياسيّ تابوهاتٍ لا تعتور عليها الشّكوكُ وحقائق لا تدركها المراجعاتُ.

وهو ما نتج عنه تحوّل صراع المُلافظة التّأويليّة الجارية داخل أسيجة الخطاب التّفسيريّ/ التّأويليّ، إلى صراع ماديّ تقوى فيه المناكبات وتتضاعف داخله المشاحناتُ يصحبها، «عنفٌ مقدّسٌ» تشرّع ضرورةَ حدوثِه، أوهامُ اعتقاد[2].

وقد عارضنا المادّة التّفسيريّة/ التّأويليّة المختبرة باعتبارها خطابا حِجاجيّا[3]بمناويلَ نظريّة كثيرة، كان منوال «برتون» الحِجاجيّ التّحاوريّ أحدها، فبدا لنا أمر توسيع المتصوّرات النّظريّة اِقتضاء ضروريّا، لا فعلا تكميليّا نظرا إلى ما يختصّ به مجال المدوّنات المختبرة التّداوليُّ من خواصَّ عقديّة وإيديولوجيّة فكريّة، يكون بمقتضاها الحدثُ الحِجاجيُّ، حدثا مغايرا لما هو عليه من أوضاع في الإبستيميّة الغربيّة. وهذه المغايرة في المفهوم والإجراء لا نعتبرها نقيصة يخجَل من ذكرها المرءُ، بل نعتبرها خاصيّة مائزة، إذا اِستطعنا وضعها في سياقها النّظريّ والتّداوليّ تجاوزنا كثيرا من التّأويلات التّراثيّة المشبعة

1- الشّبعان (عليّ). الحِجاج والحقيقة وآفاق التّأويل. (المرجع نفسه).
2- أركون (محمّد). (المرجع نفسه).
3- الشّبعان(عليّ). (المرجع نفسه).

بـ»الجهل المقدّس»[1] الّذي يحوّل الحقائقَ التّأويليّةَ، زيفا مقنّعا يستميت المدافعون عنه والمنافحون به في تزيين مظهره وتحسين سِحنته، حتّى يجعلوه اليقينَ المطلقَ والجنّةَ الضّائعةَ الّتي يدّعي أصحابُ الإيديولوجيّات، اِمتلاك أسرارها والسّيطرة على مسالك بلوغها.

وقد بدا هذا الأمر في المدوّنات التّفسيريّة/ التّأويليّة الّتي اِتّخذناها نماذج ممثِّلة[2] على اِختلاف وجوه مقاربة الحقائق وتمكين العقائد في مجالات التّداول المذهبيّة الّتي تكون تفاسيرُ المفسّرين وتآويلُ المؤوّلين، هيئاتٍ لها وأماراتٍ عليها، تختزل حقائقَها وتترجم مقاصدَ أصحابِها.

ولكنّ النّاظر فيما يبديه ظاهرُ الخطاب من سلامة النيّة وقوّة المعتقد، سيظفر بعكس ما أخبر به سطحُ الكلام وما أبداه واضحُ اللّفظ، أعني إخفاء اللّوثات السّياسيّة والأدواء الإيديولوجيّة الّتي سرعان ما تكشف عنها نتوءاتُ الخطاب ومماحكاتُ التّبكيت بين مذهب ومذهب، أو بين نِحلة ونِحلة تغريها المفاخرة، وتأخذها حميّة تمكين الرّأي الأصوب وترسيخ الخيار الأنجع.

ولهذه الأحوال في كتب الملل والنّحل وفي مدوّنات الفرق والمذاهب، شواهدُ جمّةٌ لا يتّسع لذكرها هذا المقامُ، تدلّ على أنّ اختلاف التّفسيرات وتكاثر التّأويلات، إنّما هو مباينةٌ مذهبيّة وافتراقٌ سياسيٌّ، يروم كلُّ حامل لواء تمكين شرعيّته، وإبطال شرعيّة غيره.

إنّ هذا الرّشح التّأويليّ ما كان ليكون، لولا العمل الّذي أجريناه على متصوّر «بنينة الواقع»، أعني التّوسيع الدّلاليّ الّذي حمّل المتصوّر معانيَ لم تكن له في الأصل، فزاد

1- عن «الجهل المقدّس» ومختلف تمظهراته في الخطاب والمجتمع والمعاملة، راجع - تمثيلا لا حصرا-، أركون (محمّد)، نحو تاريخ مقارن للأديان التّوحيديّة، ترجمة: هاشم صالح، دار السّاقي، بيروت، لبنان، ط/1، 2011.

- وكذلك، شايغان(داريوش). ما الثّورة الدّينيّة، الحضارات التّقليديّة في مواجهة الحداثة، ترجمة: محمّد آلرّحموني، مراجعة مروان الدّاية، دار السّاقي، بيروت، لبنان، ط/2، 2011 .

العنوان الأصليّ:

- Shayegan (Daryush). Qu'est-ce qu'une révolution religieuse, Albin Michel, Paris, 1991.

- وكذلك: أوليفييه روا، الجهل المقدّس، زمن دين بلا ثقافة، ترجمة صالح الأشمر، دار السّاقي، بيروت، لبنان، ط/1، 2012.

العنوان الأصليّ:

- Roy (Olivier). [La sainte ignorance: Le temps de la religion sans culture, Editions du Seuil, octobre 2008].

- وكذلك، الزّاهي (نور الدّين). المقدّس والمجتمع، إفريقيا للنّشر، الدّار البيضاء، المغرب، ط/1، 2011.

2- الشّبعان(عليّ).(المرجع نفسه).

فوائض دلاليّة وسّعت مداه وقوّت أدواره الوظيفيّة، ليتحوّل من متصوّر مقصور على نظريّة الحِجاج في المحاورة إلى آلة تأويليّة، نفكّك بها مضمرات الخطاب التّفسيريّ التّأويليّ الّذي تصير فيه البنينةُ جاريةً على العقائد المذهبيّة والحقائق الأنطولوجيّة الّتي ينوي المحاجّ/ المؤوّل تمكينها في عقول مريديه يحفظونها أسرارا دائمة، لا تتاح لغيرهم فتضمن لهم الفوز الأكبر في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، بل ينفع فيه الولاء للحقّ، كما اعتقد فيه أصحابُه ترجمته تفاسيرهم وحوته تآويلهم تصارعت فيها الفهوم وتضارعت داخلها الخلافاتُ، حتّى ظهرت على أديم الواقع أفعالاً باديةً للعيان تردّد سوأة الخلاف الأوّل يتّخذ أشكالاً متباينةً وهيئاتٍ مختلفةً ترسم ملامحَها جماعاتُ الاعتقاد تبدّلها المصالحُ وتكثّرها المطامحُ إلى بسط السّلطان وإحكام القبضة على الرّقاب الّتي أعماها الولاءُ الإيديولوجيُّ المطلقُ وكبّل حركتَها الانتماءُ الخطّيُّ المفرطُ، فغاب عقلُها وأُعدم رُجحانُها.

3- المصطلح الحِجاجيّ: من (الآلة المنطقيّة) إلى (الرّافد التّأويليّ):

لقد بدا لنا - ونحن نقلّب النّظر في متصوّر بنينة الواقع كما أجراه «برتون» في مؤلّفه: (الحِجاج في المحاورة)- أنّ هذا المتصوّر قابلٌ شأنه في ذلك شأنُ كلّ متصوّر تحويلاتٍ كثيرةً وتوسيعاتٍ جمّةً تجري عليه فتوسّع دلالته وتطلق مساحة انتشاره، فيتحوّل المتصوّر الواقع تحت تأثيرات المدّ والنّشر باعتبارهما مظهرين من مظاهر التّتميم المعرفيّ القائم على فلسفة نظريّة واعتقاد أنطولوجيّ مدارهما على إضفاء الحركيّة التّوليديّة على المتصوّرات النّظريّة المستجلبة من ثقافات غير عربيّة تعاد تبيئتها وَفق أشراط السّياق المستضيف أعني سياق الثّقافة العربيّة والإسلاميّة الّذي تصله بسياقات المعرفة الأخرى وشائجُ وروابطُ لها في تاريخ المعرفة علاماتٌ تشهد على حدوث هذا الاتّصال مذ خطّ العرب الأوائل أبجديّات الحضارة الّتي كان وجودها من وجود غيرها من الثّقافات يحدث بينهما التّواصلُ ويجري في محيطهما التّفاعلُ فكان حدث ترجمة معارف يونان وفلسفتهم كما كان حدث نقل حكمة فارس وعلم الهنود مظهرا دالاّ دلالة العيان والشّهادة على حتميّة اتّصال الثّقافات بعضها ببعض.

ولعلّ هذا الواقع الفكريّ الّذي نوصّف هو الّذي جعل حركة التّوليد المصطلحيّ في حضارتنا العربيّة حركة يشوبها البطءُ وتكثر حولها القلاقلُ فمن منافح بصرامة الإدماج وضمّ الدّخيل إلى متّهم قدرةَ اللّغة العربيّة على مسايرة ثورات العلماء في علومهم ومواكبة فتوح المصطلحيّين في اصطلاحاتهم.

ولكنّ المعضلة كما نقدّر لا تكمن في العلّتين السّابقتين، وإنّما تكمن في الاستقواء على تبرير الأحكام وتوصيف الظّواهر بالعقيدة الإيديولوجيّة أكانت مادحة مقرّضة أم كانت هاجية مؤثّمة، فكلتا الحالين يحول، -من فرط التّموقع- بين العِلم وحركة تطويره فتطلق لمنطق المزايدة - باسم الدّفاع عن المفضول-، أعنّةُ الوصم المائزة الّتي تخلع البركات على من التزم السّمت وتمنعها عمّن ارتكب «مأثمة الاِجتهاد»، فحوّل المتصوّرات وشقّق معاني المصطلحات، عساه بذلك يطوّر مجالا علميّا أو ينمّي حقلا معرفيّا.

وقد عرض عبد آللّه إبراهيم في مصنّفيه البديعين أعني: المركزيّة الإسلاميّة[1] والمركزيّة الغربيّة[2]، مختلف ما قد تنتجه التّمركزاتُ حول العقائد والأدلوجات والأوهام والعرقيّات واللّغات والثّقافات من آثام وويلات قد تتحوّل بمفعول ما يحدثه المعتقدون والفاعلون وذوو المصلحة من مضاعفة المدّ الإيديولوجيّ والتّمركز الفكرانيّ الناجمين عن إسناد معان قد لا تسعها طاقة الأصل ولا تتحمّلها قدرته، فيرغم على احتوائها كرها ويُحمل على إدراجها ضمن أنساقه إجبارا.

فيحدث من جرّاء هذا الإكراه الواقع على المتصوّرات الأصليّة، نوعٌ من التّهجين الّذي قد يعصف بالأصل المحوّل، فيفقده سماته المائزة ويحرّف محتواه الحقيقيّ الّذي قُدّ من أجله ونُحت على مقداره.

إنّ آثام التّمركزات، إنّما هي آثام كونيّة لا تقتصر على ثقافة دون ثقافة، لا بل إنّها مغروزة في جبلّة البشر تقوّيها المنافحاتُ وتضاعفها المزايداتُ ويزيد عليها كلّ جيل ما تسمح به أساطيره المشتقّة من تابوهات يبدعها مخيالُه وتصوّرات تراكمها تجاربُه.

وحتّى نتجاوز هذا الحرج - ونحن نمدّ في مساحة متصوّر بنينة الواقع الدّلاليّة-، فلا نصاب بما أصيب به غيرُنا من داء التّمركز حول فكرة أو معتقد علميّ، فإنّ ما أسندناه من معان مشتقّة ودلالات مولّدة علّقناها بمتصوّر بنينة الواقع كما أجراه صاحبُه في سياقه النّظريّ الأصليّ، أعني عمل الحِجاج في المحاورة، لم يخرج عن المولّدات المتصوّريّة الأصليّة القائمة على ربط فعل البنينة بالتّجريد الذّهني الّذي يسمح استتباعا ومنطقا بربطه اقتضائيّا بالبنينة المحسوسة الّتي تنطبع ضرورة بما يرشح عن البنينة الذّهنيّة التصوّريّة من أشراط وحدود تنعكس في الواقع المادّي تسمه وتنعته تحدّه وتعيّنه .

1- المرجع نفسه.

2- المركزيّة الغربيّة: (إشكاليّة التّكوّن والتّمركز حول الذّات)، المركز الثّقافيّ العربيّ، بيروت، لبنان، الدّار البيضاء، المغرب، ط/1، 2001.

وخير ما يُحتجّ به في هذا المقام مقامِ انطباع البنينة الحسيّة/ الماديّة بقواعد البنينة الذّهنيّة، ما أشار إليه، عبد اللّه إبراهيم في كتابه: »المركزيّة الإسلاميّة: من وقوع الرّحّالة العرب المسلمين - وهم يرسمون للأقاليم أبعادها والمدى، أشياءها وطبائع ناسها-، تحت طائلة تعاليم العقائد الدّينيّة والإلزامات الإيديولوجيّة، فكانوا - وهم يرسمون خرائط العوالم المستكشفة-، إنّما يعيدون إنتاج تلك العوالم وَفق أنظمتهم الاعتقاديّة الّتي قامت على ضرورة إثبات الغلبة للمسلمين ونسبة الحضارة إلى العرب تمركزوا حول عقيدة الأمّة المفضولة الّتي ترى غيرها من الأمم» همّجا ورعاعا» «جوجا ومأجوجا».

وهذا التّمركز حول الدّين والعرق الّذي طبع فكر الرّحالة العرب في العصر الوسيط وما نتج عنه من بنينات ومتصوّرات تجري على الأذهان والأعيان، أنتج لدى الآخر الغربيّ ما كان قد صنعه العرب والمسلمون على آخرهم من صور وتمثيلات تختزل الصّفة البشريّة والخلّة الإنسانيّة في مقدار الانتماء إلى دائرة الإسلام، إذ الدّيار في عيون الرّحّالة المسلمين داران: «دار كفر» و»دار إسلام»، «دار سلام» و»دار حرب»، لذلك كانت الصّراعات بين البشر، صراعاتٍ عقديّةً تغذّيها المصالحُ الفرديّةُ، وتوقد نارَها، الأوهامُ الجماعيّةُ، فتقوى حينا وتخفت أحيانا، ولكنّها باقيةٌ ما بقي الإنسانُ، تغريه الغلبةُ ويسعده الاِنتصارُ.

خاتمةٌ وتركيبٌ

المصطلح المولَّد والفضاء الأنطولوجيّ المفتوح

[قانون إعادة تشكيل المعقوليّات التّأويليّة]

لقد حاولنا أن نبيّن من خلال هذا البحث مختلِف الإمكانات التّحويليّة الّتي يمكن تسليط فعلها على المتصوّرات، تتغيّر معانيها، وتتّسع دوائر ما تحويه من مقاصد وغايات.

وقد اتّخذنا لاختبار هذه الدّعوى النّظريّة متصوّر «بنينة الواقع» الّذي اِستعمله «فليب برتون» في كتابه: (الحِجاج في المحاورة)، فحمّله في سياق نظريّته ما بدا له من المعاني متوافقا وأشراطَ نظريّة الحِجاج في المحاورة الّتي تقُدّ حجاجيّة الخطاب فيها أفعالُ اللّغة وأعمالُ الكلام تسقط إشعاعاتها التّأثيريّة على المخاطبين ينفعلون فيؤمنون يتواجدون فيطيعون.

ولكنّ غاية التّتميم المعرفيّ الّتي عاهدنا أنفسنا على بلوغ مرماها قضت أن نلصق بهذا المتصوّر رشحا دلاليّا وسّع مداه وكثّر معناه، دون أن يخرج هذا التّتميمُ على نواة المتصوَّر في سياقه الأصليّ الدّائر على البنينة الذّهنيّة الّتي تحدث أعمالها في عقل المحاجّ بطريقة مجرّدة تتحوّل بعد الشّرعنة والتّمكين اصطلاحاتٍ منمّطةً ينظّم بها الفاعلون الاجتماعيّون فضاءاتهم الواقعة تحت طائلة سلطانهم، وذلك بغية إحكام السّيطرة على كلّ ما وقعت عليه أيديهم من مواطن النّفوذ لا تفتر لها قوّةٌ ولا يبطل لها فعلٌ فتدوم في الزّمن وتتواصل في ذكريات الاستحضار تشهد على نجاح مسار تأويليّ ندب نفسه ليكون الخيارَ الأوحدَ، يضمن للعبد سعادته في الدّارين: تمكينا في العاجلة وتخليدا في الآجلة تحقّق فيها رغبات الشّوق الممنوعة ويقوى فيها التنعّم بتوابع مجاهدة النّفس الّتي طُرد من كيانها الانقيادُ إلى فتنة جارفة أو هوى لجوج، فقانون التوسيع الدّلاليّ الّذي يمارس على المتصوّرات، إنّما يضمن للمعرفة تطوّرها والنّماء.

وهذا ما بدا لنا - ونحن ننجز هذا الفعل على متصوّر: (بنينة الواقع) - كما أجراه (برتون) في سياق نظريّ محدّد يعتبر الحِجاج عملا من أعمال المحاورة الّتي تجري بين طرفين أو أكثر واقعا تكون فيه الكينوناتُ المتحاورةُ حاضرة حضورا فيزيائيّا يجمعها فضاءٌ موحّد أو افتراضا يتصوّرها باني الخطاب لا تنفكّ إرادة فعله عن استحضار جمهور يسمع الخطاب ويردّ عليه أفعالا تتراوح بين الانفعال والطّاعة وبين الرّفض وإشاحة الوجه عن

المقرّرات الحِجاجيّة يتصوّرها المحاجُّ حقائقَ تنتج المقانعةَ وبراهينَ تضمن الطّاعةَ وتحقّق الولاءَ الكاملَ والاستجابة المحقّقة.

وقد دعتنا مهمّة التّتميم المعرفيّ لبعض ما يوجد في المتصوّرات المستجلبة من بيئات معرفيّة غير عربيّة نستعين بها لكشف ما يخفيه (التّراثُ) من إستراتيجيّات وحقائق ومصالح ومتخيَّلات وأشكال برهنة وأنماط مقانعة إلى نشر مساحة المتصوّر حتّى لا يحصل عسفٌ عليه ولا تكون الاستفادةُ منه، دون ما تبيحه إمكاناتُ المدوّنة التّراثيّة التّفسيريّة/ التّأويليّة العربيّة والإسلاميّة الّتي كانت لنا مختبرَ عملٍ في مقام غير هذا بحثنا فيه مختلف أنماط الحِجاج ومتباين أشكال البرهنة على حقائق النصّ المتعالية يكاشفها صاحبُ السرِّ فيسيّجها بسحر يخفي مشاعيّتها ويحدّ من عموميّتها حتّى لا تذهب في النّاس مُجرى المثل المعروف الّذي لا تفاضل في امتلاكه ولا شرف في الفوز به.

لذلك كان توسيع متصوّر «بنينة الواقع»، إمكانا تحويليّا خصيبا، ورافدا أنطولوجيّا/ فلسفيّا مفتوحا، إذا سَلّطت عليه المدوّناتُ المختبرة، أفعالَها لان وأطاع لتُشتقّ من لدنه معان كثيرة وروافد دلاليّة جمّة، تترجم حقيقة ما يسند إلى عمل التّوليد المصطلحي من وظائفَ، تتلوّن بما يحيط بالمتصوّرات من سياقات معرفيّة وفكريّة وسياسيّة وإيديولوجيّة تسهم بمقاديرَ متفاوتة في إحداث بنينة داخل البنينة أعني: إعادة إنتاج دلالات المتصوّرات وَفق شروط الأسيقة الحاضنة والمجالات التّداوليّة المحيطة بأصل المتصوّر، توجّه مساره وتطبع معياره.

ومن هنا ندرك أنّ ما يطرأ على المتصوّرات قبل أن تتحوّل، مفاهيمَ ومصطلحاتٍ من أعمال تحويليّة ضبطها عبد آلله إبراهيم في أشكال ثلاثة هي: (الضّمور الدّلاليّ، والتضخّم الدّلاليّ، والانحراف الدّلاليّ)، ليس مجرّد تحويلات شكليّة تجري في حيّزات لغويّة مغلقة وتتّخذ، أشكلا معجميّة معروفة، بل هي أفعالٌ تُدرِك المعقوليّات التّأويليّة المنبثقة من أعمال التّحويل الّتي تطرأ على متصوّرات علم من العلوم، تحوّل معناها وتغيّر محتواها.

ولذلك بدا لنا العملُ الاصطلاحيّ، عملا تنخزل فيه إرادة الإنسان، يطوّر عالمَه وينمّي فكرَه، حتّى يقوى على نوائب الدّهر يغالبها بالاشتقاق وينتصر عليها بديمومة الفعل ينجلي في أفعاله الظّاهرة أو تترجمه نواياه المبطّنة الّتي تبقى في خفائها لغزا مغريا وأمنية طليقة، تطرّي جفاف المنطق الّذي يحاصر المصطلحات المحبوسة داخل أسوار علومها بالأفعال التّأويليّة النّامية الّتي لا يحدّها، مجالٌ ولا يكبح حركتها، مانعٌ، لأنّ هوسها بالكمال تصل إليه

همّةُ المؤوِّلِ، جعلها ترى ما لا يراه غيرُها من سطوة الرّمز، تتّخذ تعاليمه حقائقَ تقطع دابر الفُرقة، وتحدّ انسياب الإمكان حتّى لا تذهب متعة الخدر، بل تبقى وتدوم تضمن للمصطلح استقراره ولمعناه دوامه والأمان، بهما تتحصّن مؤسّسة صناعة المعنى وإنتاج ما يجوز فيه وما يمتنع من رياح قد تعصف بالعِلم تنفيه وتبطل مقرّراته أو تراجع بعض ثوابته الّتي توهّم النّاسُ ثباتها، ثمّ جاء من خوّلت له النّفس أو أخذه جذب العِلم، فعصف بتلك القواعد العلميّة، وبنى على أنقاضها واستلّ من أسرارها ما به أطلق عوالم قد تجوز وقد لا تجوز بحسب تصاوير الذّهن، تحمل صاحبَها إلى مدارات قد يعمرها الحزنُ وتلفّها الكآبةُ، أو يطبعها الاِنسيابُ ويسمها الانطلاقُ، فتصنع من سعادتها، أقاليمَ حالمةً، تكون صورةً من عذوبة الحياة، مدّت وانتشرت، تلك أوضاعٌ تعتور على المتصوّرات، بالمجاز صغناها، تترجم حياة المصطلح يمتدّ وينتشر أو يتقلّص ويضمر، شأنه شأن صانعه، تفعل فيه نوائبُ الدّهر، وتأتي عليه فيه، أحوالٌ وأطوارٌ تطبع مساره وتلوّن مآله، فيكون وجود المصطلح في هيئات لغويّة لها أطرها ومعانيها الّتي قدّتها أحوال وصاغتها أوضاعه يثريه سياقٌ تداوليٌّ، فينشر مدَّه أو يعصف به سياقٌ تداوليّ آخرُ، فيقلّص انتشارَه.

منزلة المصطلح من منزلة صانعه، لا يكادان يفترقان، فكلاهما بالآخر موصولٌ قَرن بينهما أصل العلاقة الّتي لا تفصل اللاّفظ عن لفظه ولا تمنع الشّكل عن محتواه، يربطهما جامعٌ أنطولوجيٌّ وواصلٌ وجوديٌّ يوحّد بين الكينونتين ويماهي بين الوجودين في دورة يبدأها المتكلّم ويستلمها المتقبّل، يؤوّل مقاصدها ويكشف مكتّماتها في جدل مسترسل.

فهرس المصادر والمراجع

باللّسان العربيّ:

- أرسطو طاليس. فنّ الشّعر مع التّرجمة العربيّة القديمة وشرح الفارابي وابن سينا وابن رشد، القاهرة، 1953.
- أ.ه، (أرمسترونع). مدخل إلى الفلسفة القديمة ترجمة: سعيد الغانميّ، المركز الثّقافيّ العربيّ، بيروت - الدار البيضاء، ط1/ 2009.
- يوسف (ألفة). حيرة مسلمة، دار سحر للنشر، تونس، ط/1، 2008.
- الزّيدي (توفيق). جدليّة المصطلح والنظريّة النّقدية، قرطاج 2000، تونس، ط/1 1998.

صمّود(حمّادي):

- التفكير البلاغيّ عند العرب: أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس (مشروع قراءة)، منشورات كلية الآداب، منوبة، تونس، ط/2 1994.
- من تجلّيات الخطاب البلاغيّ، دار قرطاج للنشر والتّوزيع، تونس، 2000.
- يفوت (سالم). نحن والعِلم، دار الطّليعة، بيروت، لبنان، ط/ 1 1995.
- عبد الرّحمن (طه). اللّسان والميزان أو التّكوثر العقليّ، المركز الثّقافيّ العربيّ، ط/ 1 1998.
- عبد الرّحمن (جغلول). الإشكاليّات التاريخيّة في علم الاجتماع السياسيّ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط4/ 1987.
- ابن خلدون (عبد الرّحمن). المقدّمة، دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، (د.ت).
- إبراهيم (عبد اللّه). الثّقافة العربيّة والمرجعيّات المستعارة، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1/، 2010.
- صولة (عبد اللّه). الحِجاج في القرآن، منشورات كلية الآداب، منّوبة، تونس، ط/2 2009.

الشّبعان (عليّ):

- الحِجاج والحقيقة وآفاق التّأويل في نماذجَ ممثّلة من تفسير سورة البقرة: (بحثٌ في الأشكال والإستراتيجيّات)، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، لبنان، ط/1، 2010.
- الحِجاج بين المنوال والمثال: (نظراتٌ في أدب الجاحظ وتفسيرات الطّبريّ)، مسكلياني للنشر، تونس، ط/1 2008.
- الدّريسيّ (فرحات). مراجعات مفهوميّة في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، أديكوب للنشر، تونس، 1993.
- اليوسفيّ (محمّد لطفي). الشّعر والشّعرية: الفلاسفة والمفكّرون العرب ما أنجزوه وما هفوا إليه، الدّار العربية للكتاب، تونس، 1992.
- النّويريّ (محمّد نجيب). علم الكلام والنظريّة البلاغيّة العربية، دار محمّد عليّ الحاميّ، تونس، 2005.
- حمّو (الهادي). مواقف الحِجاج والجدل في القرآن الكريم، مطابع النّهضة، (د.ت).
- هابرماز (يورغن). إتيقا المناقشة، ترجمة وتقديم: عمر مهيبل، الدّار العربية للعلوم ناشرون بالاشتراك مع منشورات الاِختلاف، الجزائر، ط/1 2010.

ندواتٌ ومؤلّفات جماعيّة:

- الحِجاج في التّقاليد الغربيّة من(أرسطو) إلى اليوم: مؤلفٌ جماعيّ لفريق البحث في البلاغة والحِجاج وتحليل الخطاب، إشراف: الأستاذ: صمّود (حمّادي). كلية الآداب، منوبة، تونس، ط/1، 1999.
- الحِجاج: مفهومه ومجالاته: دراساتٌ نظريّةٌ وتطبيقيّةٌ في البلاغة الجديد، أعدّه وقدّم مادّته ونسّق موضوعاته الدّكتور: علوي (حافظ إسماعيلي). عالم الكتب الجديدة، إربد، الأردن، ط/1 2010، (خمسة أجزاء).
- ندوة المصطلحيّة، مطابع جامعة سوسة للنشر، تونس، ديسمبر، 2010.

باللّسان الأجنبيّ:

- Pierrot (Anne Herschberg) .«Cliches, stéréotypes, dans le discours de lieu-vain», Littérature, 36, 1979.
- Aristote. Rhétorique des passions, poste face de M. Meyer, Paris, Rivages poche, 1989.
- Lamy (Bernand). La Rhétorique ou L'art de parler, ed. Critique.
- Plantin (C); Doury(M); Traverso(V). Les Emotions dans les interactions, Presses universitaires de Lyon, 2000.
- Kerbrat-Orecchioni (Catherine). L'implicite, Paris, Colin, 1990.
- Perelman (Ch). L'Empire rhétorique. Rhétorique et argumentation, Paris, Vrin, 1977.
- Perelman (Chaïm) et Olbrechts - Tyteca (Olga). 1er éd. 1958, Traitè de l'argumentation. La nouvelle rhétorique, édition de l'université de Bruxelles, 1970.
- Plantin (Christian). «L'argument du paralogisme», Hermes 15, Argumentation et Rhétorique 1, 1995.
- Plantin (Christian) .«Les raisons des émotions», Forms of Argumentative Discours / Per un'analisilinguisticos de 1'argomentare, in M. Bondid; Bologne, CLUEB, 1998.
- Plantin (Christian). Lieux communs, topoï stéréotype, clichés, Paris, Kimé, 1993.
- Maingueneau (Dominique) .Pragmatique pour le discours littéraire, Paris, Bordas, 1990.
- Manigueneau (Dominique). Le contexte de l'œuvre littéraire, Enonciation, écrivain, Société, paris, Dunod, 1993.
- Walton (Douglas). The place of Emotion in Argument, /The Pennsylvania state University Press, 1992.
- Benveniste (Emile) .Problèmes de linguistique générale 1, Paris Gallimard, 1966.
- Sarfati (Georges - Elia) .Eléments d'analyse du discours, Paris Nathan, 1997.
- Molinié (Georges). «Lieux», Dictionnaire de rhétorique, Paris, le livre de poche, 1992.

- Genette (Gérad). Figures III, Paris Le seuil, 1972.
- Declerq (Gilles). L'Art d'argumenter. Structures rhétoriques, 1992.
- Mathieu- Castellani (Gisle). La Rhétorique des passions, Paris, PUF, 2000.
- Grice (H.P). «Logique et conversation», Communication 30, 31-56, 1979.
- Copi (Irving) et keith Jakson (Burgess). Informal logic, NJ, Prentice Hall, 1992.
- Grize (Jean-Blaise). logique et langage, Paris, Ophrys, 1990.
- Anscombre (Jean-Claude). éd, Théorie des topoï, paris, kimé, 1995.
- Angenot (Marc). La parole pamphlétaire. Typologie des discours modernes, Paris, Payot, 1980.
- Ducrot (Oswald). Le Dire et le dit, Paris, Minuit, 1984.
- Ducrot (Oswald). Les Mots du discours, Paris, Minuit, 1980.
- Bourdieu (pierre). «le champ littéraire», Actes de la recherche en sciences sociales, 89 septembre, 1991.
- Fontanier (Pierre). Les Figures du discours, introd. G.Genette, Paris, Flammarion, 1977.
- Amossy (Ruth), & Anne pierrot (Herschberg). Stéréotype et clichés, langue, discours, société, Paris Nathan, 1997.
- Amossy (Ruth). Les idées reçues: Sémiologie du stéréotype, Paris, Nathan, 1991.